راهب إيليـــاء

للأستاذ محمد سعيد العريان

على حدود الصحراء صوامع وبِيَع ، وكنائس وأديار ؛ فيها قساوسة ورهبان نذروا أنفسهم لله أو نصبوا حبائلهم للمال ؛ منهم برٌّ وفاجر ، وناسك وداعر ؛ وحواريٌّ من بقية السلف المؤمنين خاشع فى محرابه ، عاكفٌ على أسفاره ، يترقب مَشرق الصبح بنفس راضية وقلب عامر ؛ وآخرُ شيطانٌ فى مسوح راهب ، قد استمرأ المرعى فى ظل البطالة ، واستوطأ المقام فى كنف الراحة ، واستلذّ الحياة فى الدّير بين خمرٍ عتيق وقدٍّ رشيق وعودٍ ونداى !

وعلى ساحل البحر قلاع وحصون ، وصياص ومعاقل ، وجند من جند الروم قد رابطتْ على أهبة واستكملت السلاح والعدة !

وبين الصحراء والبحر من بلاد الشام يعيش شعب مرزوء ، سلبه غزاةُ الروم وطنَه ومالَه ، وسلبه الرهبان والقساوسة الدينَ والخلقَ وحرية الفكر والضمير !

وكانت قوافل التجار لا تنقطع بين الحجاز والشام

* * *

وكان يوماً قائظاً حين وفدت على الشام قافلة من التجار العرب ، فأناخت جمالها على حدود الصحراء فى ظل جدار قائم ، تستجمّ لما بقى من الرحلة ، وتنفض عن كواهلها غبار السفر الطويل فى صحراء ليس فيها ظلٌّ ولا مأوى ! وكان بينهم عمر !

فتى آدمُ طوّال أصلعُ أقنى الأنف قويُّ الساعد بعيدُ ما بين المنكبين ؛ فى عينيه بريق ينبئ عن عزم وفتوة ، وله نظرةُ الآمر المطاع بين رفاقه وإن لم يبلغ العشرين بعدُ ، وفيهم الكهول والأشياخ !

وبلغت القافلة حظها من الراحة فهمت تستأنف المسير ، فما كادت تمضى فى طريقها خطوات حتى اعترضها واحد من الرهبان!

ووقف الراهب يتفرس فى وجوه القوم برهة قبل أن يخطو إلى عمر فيضع يده على كاهله يختاره لما يريد من أمر !

وأيقن الركب أن لا قدرة لهم على عصيان الراهب فيما يريد ، فخلفوا الفتى بين يديه ومضوا على وجوههم ...

ولم يستطع عمر خلاصاً من يد الراهب ، ولم يعرف لأى أمر يريده ، فانقاد له . وبلغا الدير فدخل الراهب ودخل عمر ...

وكان فى الحوش كومة من تراب ، وإلى جانبها مجرفة ومكتل ؛ فتقدم الراهب إلى عمر يأمره : « يا فتى ! هذا التراب تحمله من هنا إلى هناك ... يجب أن تفرغ منه قبل أن أعود إليك ... ! »

تكلتْك أمك يا عمر ! ألهذا كانت رحلتك الطويلة فى البادية الظامئة من الحجاز إلى حدود الشام أياماً وأسابيع ؟

وجلس الفتى يتحدث إلى نفسه مغيظاً محنقاً ، لا يجد من

فبكيتها ، لا بل بكيتُ صبابتى ... ورثيتها ، لا بل رثيتُ فؤادى

يا دوحةَ الفرصاد غيرك البلى ... وجرت عليك روائح وغوادى

أشبهتِ أعوادى التى نثر الأسى ... أوراقها ، واهًا على أعوادى

قد كنتِ مثلى فى الربيع غضيرةً ... أيامَ أوراق المنى أبرادى

فغدوتِ عارية فلا ثمرٌ ولا ... ورق عليكِ ولا حَمام شادى

أشبهتنى حتى بكيتُ وإنمـــا

يدرى جوى الصديان قلب الصادى

يا قلب ليتك فى النعيم وفى الأسى ... أبدَ الزمان كدوحة الفرصاد

فلقد يعود مع الربيع شبابها ... لكنْ شبابُ العمر غير معاد

عبد المجيد الشرقاوى

كبريائه سبيلاً إلى الطاعة ولا طريقاً إلى الخلاص . ومضت ساعة وعاد الراهب مخموراً يتهالك من نشوته ، وإن عليه لثوباً رقيقاً من حرير يشفّ ويَصف ، ويفوح من أردانه عطر مُسكر !

ونظر الراهب إلى كومة التراب ما تزال فى موضعها حيث كانت ، وإلى جانبها المكتل والمجرفة ، وإلى عمر مايزال فى موضعه واقفاً يتفكر ...

ودنا منه الراهب وفى عينيه الغضب ، فلطمه لطمة ألمية وهو يسبّ ويتوعّد ... !

هواناً لك يا عمر إن لم تأخذ بحقك ثائراً كما يثأر البدوىُّ لعرضه المنتهك !

وهاجت كبرياء عمر فتناول المجرفة من قريب فأهوى بها على رأس الراهب فخرّ صريعاً لوقته لم ينبس بكلمة !

« لك ما أردتَ لنفسك ... ! » :

قالها الفتى العربى وهو يجمع عزيمته فى رجليه فيقفز على سور الدير إلى الطريق لا يعرف أين ينتهى ولا أين يدركه الطلب !

ومضى على وجهه فى الفازة الشاسعة عدْواً كالظليم لا يقف فى طريقه شيء من حفرة أو صخرة أو تلّ معترض ، حتى انتهى إلى جدار قائم فأوى إلى ظله حتى تنىَ إليه نفسه ...

وأطلّ رأسٌ من نافذة ينظر . . . ثم انفتح باب الدير الذى أوى إلى جداره عمر ؛ وخرج إليه راهب يسأله عن خبره ... !

« من تكون يا فتى ؟ وما جاء بك ؟ »

واستمع عمر إلى الصوت الذى يناديه فرفع رأسه ينظر ؛ فإذا قسٌّ ناحل سقيم الجسد غارق فى مسح أسود ، وعلى جبينه إشراق ونور وفى عينيه تواضع ورحمة .

أجابه عمر فى صوت يختلج : « سيدى ! عابر سبيل أضلّ أصحابه فأوى إلى ظلك ساعة يستريح ! »

سمع الراهب لحديث عمر ثم قال مبتسماً : « أحسبك لم تصدقنى يا فتى ؛ فإن فى عينيك بريقاً ينبئ أنك هارب مذعور ! »

ازدرد الفتى ريقه ، واستطرد الراهب : « لا عليك ؛ إن عندى مأوى صالحاً وطعاماً ! »

وقاده من يده إلى الدير وأغلق الباب وراءه ... ... !

* * *

جلس عمر إلى مائدة شهية فأكل وشرب ؛ والراهب بإزائه يحدق فيه لا يكاد يطرف جفنه ، وبينه وبين نفسه حديث طويل .

فلما فرغ من طعامه جلس إليه يتبادلان الحديث ، حتى أنس عمر وثابت نفسه ، وصمت الراهب برهة ثم عاد ينظر فى وجه الفتى وهو يقول : « أنك لأنت ... ؟ »

وطارت نفس عمر ، وتوزّعته الظنون ، واستمر الراهب فى حديثه : « . . . ألا إنه ليس فى هذا البلد من هو أعلم منى بعلم أهل الكتاب ؛ فإنى لأكاد أوقن أنك الشخص الذى أعنى : ستدول دولة الروم فى الشام على يدي فتى مثلك ؛ ويخفق عليها لواء دين جديد ! »

لم يفهم عمر كلمة مما قال الراهب ، ولكنه استمر يستمع له مدهوشاً ذاهلاً ، وفجأة سأله الراهب : « ما اسمك يافتى ؟ »

قال : « ... عمر بن الخطاب ، من بنى عدىّ ! »

وهب الراهب واقفا وهو يقول : « والله ما خدعتنى فراستى . إنك لأنت هو ؛ فهل تعاهدنى ... ؟ »

ثم أتى بقرطاس وقلم فدفعهما إلى عمر قائلا : « اكتب ... اكتب أننى جارٌ لك ، لا عدوان علىّ فى مالى ولا فى نفسى يوم يئول أمرها إليك ... ! »

وفغر الفتى فاه دهشة لما يرى وما يسمع ؛ ثم توجه إلى الراهب يقول : « سيدى ، لقد أكرمتنى وألطفتنى ما لا مزيد عليه ، فلا تسخر منى بعد ! »

قال الراهب : « أظننت ؟ لعمر الحق ما عنيتها ، ولا عليك من شيء أن تكتب ؛ فإن كان الذى أتوقع فقد فعلت ، وإلا فلن يضيرك مما تكتب شيء ! »

وتناول عمر القلم فكتب ما أملى عليه الراهب ثم دفع إليه الكتاب ...

* * *

وعاد الفتى إلى أهله ، يعيش عيش المترفين من فتيان العرب ، لا يعنيه من أمر شيء ، إلا ما يعنى غيره من شباب مكة من المنافرة والمفاخرة وانتهاز سوانح اللذات !

ومضت سنوات ، ونسى الفتى ما كان من أمره فى الشام !

وبعث الله محمداً نبياً يدعو إلى الحق وإلى سبيل الرشاد ؛ فآمن من آمن ، وأنكر دعوته من أنكر ؛ وكان عمر أشد أعداء محمد حرباً عليه وعلى صحابته ، فما أمكنته الفرصة مرة برجل من أصحاب

محمد إلا ناله بما يكره من الأذى والمهانة !

ومضت ست سنين منذ بعث الله محمداً بالحق قبل أن يسلم عمر بن الخطاب !

وراحت جنود الإسلام تغزو الشرك في دياره ، فما وطئت بلداً إلا أعلت كلمة الله ورفعت راية الإسلام . ومضى المسلمون في جهادهم يفتحون الأمصار ونورهم يسعى بين أيديهم ؛ فما انتقل محمد إلى ربه حتى دانت الجزيرة العربية كلها وغمرها نور الإسـلام

وتولى عمر إمارة المسلمين وجنودُ الإسلام يومئذ على حدود الشام ؛ فمضى قُوّادُهُ إلى غايتهم يبشرون بالدين ، حتى تم فتح الشام على أيدى أبطاله : خالد ، وأبى عبيدة ، وعمرو ، ويزيد بن أبى سفيان . وخلصت بلاد العرب من أبناء غسان — من عسف الروم وبطش الرّهَـابين ، لتعود جزءاً من الدولة العربية المسلمة التى يقوم على شئونها عمر !

وتخفف أهل الشام من أثقال الحكم الغابر ليعودوا إخواناً متحابين ليس لأحد على أحد يد ولا منة ؛ وانزوى الرهبان فى أديارهم لا يربطهم بالجماعة رابطة إلا ما يدفعون للأمير العربى من الجزية تأميناً لأنفسهم ولما يملكون من مال اجتمع لهم على الأيام مما اغتصبوا من أفواه الجياع باسم الدين ! فأيما رجل منهم حدّثته نفسه بالعصيان والتمرّد ، ردّوه بأسيافهم إلى الطاعة وأجلَوْه عن صومعته ليجعلوها مسجداً من مساجد المسلمين ؛ فلهم حرية العبادة وحرية المقام ما التزموا حدودهم التى ضربها الإسلام عليهم ...

***

وتم الأمر للعرب فى بلاد الشام ، فكتب أمير الجند أبو عبيدة إلى عمر يدعوه ليعقد العهدين أهل الشام والعرب الفاتحين ويكتب لهم به . وقدم الركب الحجازى يقدمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ حتى أناخ رواحله فى بيت المقدس . . . وجلس عمر ذات يوم بين أصحابه وقادة جنده يشرع لهم ويبادلهم الرأى والمشورة ؛ فإذا راهب مقبلٌ من بعيد إلى حيث يجلس هو وصحابته ؛ فما إن تبينه عمر مقبلاً عليه حتى عرف ؛ فارتد بفكره إلى الماضى يذكر تاريخاً بعيداً وذكرى مضى دونها بضع وعشرون سنة ؛ فأطرق برأسه متأثراً وهو يقول فى همس : « جاء ما لا طاقة عليه لعمر ! » ثم رفع رأسه وفى عينيه بريق عجيب ، وقد تنشّـته الذكرى وعادت به إلى ماضيه تنشره أمامه صفحة صفحة منذ كان ، وكان ، وكان...

ودنا الراهب الشيخ من مجلس الأمير فحيا ووقف وفى يده صحيفة مبسوطة ، فتناولها الأمير وجعل يقرأ :

« هذا عهد من عمر بن الخطاب إلى راهب إيلياء ؛ له ما لأصحابنا وعليه ما عليهم ، لا نظلمه ولا نخذله ؛ ولا نفرض عليه ما لا طاقة له به ، وله ديره وما ملك ... ! »

وهم الراهب أن يتحدث ليشرح أمره فابتدره عمر : « حسبك حسبك ؛ إن لك ذمة فى عنق كل مسلم وكل عربى ، إن لم يؤكدها هذا الصك المكتوب أكدها شرف العربىّ وخلق المسلم ! »

ثم التفت إلى عامله أبى عبيدة قائلا : « ذلك جارى ، فله عليك الأمان والذمة ، لا يعرض له أحد بسوء ولا يناله بما يكره ! »

وتلاشت آخر كلماته فى بحة راعشة ، وغامت عيناه بدموع التأثر . ثم نهض رافعاً رأسه وهو يقول فى كلمات عميقة النبر بليغة الأثر :

« حيثما يرفرف لواء الإسلام فليس ثمة إلا العدل والوفاء والرحمة . لا يعرف الفاتح العربى غطرسة الحاكم ولا جبروت المتنصر ؛ ولا شىء بين الحاكم والمحكوم إلا دين الله ووشائج الإنسانية ! »

« شبرا » محمد سعيد العريان

ســـــينما الكرسال

ابتداء من يوم الاثنين ١٦ يناير الى يوم الأحد ٢٢ منه

ستعرض الرواية الغرامية المؤثرة

تامارا المصـــــانعة

وهى مقتبسة من قصة جورج أندريه كويل

يمثلها

فكتور فرانسن ، فرا كورين ، لولا ، جرمير ، ركمين بوسير

تدور على حادثة غرامية لصائد من صائدى الفرو له غرائز وصفات تحبها النساء ولكنه لا يعيش إلا لواحدة منهن يضحى لها بحياته